الإيديولوجي والجمالي في الكتابة الأدبية: بين قصدية النص وتأويلية التلقي

Ideological and aesthetic aspects in Literary writing
Between intentionality in the literary text and the interpretation of reception

د. صليحة بردي
قسم اللغة والأدب العربي- جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة (الجزائر)
salihaberdi@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2018/03/01 تاريخ القبول:2018/08/28 تاريخ النشر: 2018/12/01

الملخص:

تستثمر الكتابة الأدبية في أدائها الوظيفة الإبلاغية، ذلك التراكم المتميز من الخبرات اللغوية السابقة، وما قد تنتجه من أساليب متجددة، تعمل على توجيه الأثر الجمالي؛ الذي يؤسس خصوصية التجربة النصية، وتقديم كتابة بهذه المواصفات يتطلب مراعاة الخلفية الإيديولوجية التي توجهه، ومراجعة معطيات الموروث البلاغي من منظور حداثي، ووفق رؤية تساير العصر في الكشف عن الخاصية الأسلوبية، وجمالية الإنشاء، والشعرية الرفيعة، ومناقشة مختلف القضايا الفكرية التي تطرحها الكتابة الأدبية، وكذا تمفصلات النص، وتراكيبه، يضاف إلى هذه الوظيفة الجمالية، الوظيفة التقديرية أو القراءة الاحترافية، فضلا عن القراءتين التأصيلية، والإجرائية في اشتغالهما على مفهوم "معنى المعنى" الذي اصطنعه "عبد القاهر الجرجاني"، وعُرف في خطاب الحداثة بمصطلح "نقد النقد"، في ضوء ذلك تثير هذه الورقة البحثية عدة تساؤلات، بشأن الإيديولوجي والجمالي في الكتابة الأدبية، من مدخل قصدية النص، وتأويلية التلقي.

الكلمات المفتاحية: الكتابة الأدبية ; الخبرات اللغوية ; الوظيفة الجمالية ; معنى المعنى ; نقد النقد ; الإيديولوجي ; الجمالي ; قصدية النص ; تأويلية التلقي.

Abstract:

Literary writing uses the special accumulation of past linguistic experiences to put forward its literary message resulting in novel styles that guide the aesthetic value of texts which is in turn considered as the basis of the textual experience. Producing literary works with such characteristics requires taking into account its ideological background and literary heritage from a modern and up-to-date point of view, in addition to its stylistic features, elevated diction, high poetics and the intellectual debates produced by literary writing as well as the components of the text. On top of the aesthetic as well as the evaluative functions, or "professional reading" and both the methodical and consecutive reading in the workings of "meaning of the meaning", a concept created by Adbelkaher El djerjani, and known in modern rhetoric as "criticism of criticism ".In the light of the above, the present research asks a number of questions about the ideological and aesthetic considerations in literary writing, particularly the intentionality in the literary text and the interpretation of reception.

Key-words: Literary writing; linguistic experiences; aesthetic function; meaning of meaning; criticism of criticism; Ideological; aesthetic; the intentionality in the text; the interpretation of reception.

مقدمة:

فرضت الكتابة الأدبية في احتكامها للطرح الإيديولوجي حضورها من حيث قدرتها على إنتاج المعرفة، وإذا ما تقصينا أصل هذه الإيديولوجيا ألفيناها مرتبطة بموقف ما في التعبير أنتج تجربة جمالية؛ حيث يستحيل الفكر نصا، والجمال قناعاً يخفي حقيقة الواقع المعتمة، التي تلخص تجارب إنسانية تؤصلها الكتابة الأدبية.

تقع الكتابة الأدبية ضمن فضاء إيديولوجي معين تعيد إنتاجه في ضوء مكنوناتها الجمالية، وبذلك تخطت حدود النصية المسطحة، فلم تعد تشكيلا فنيا مفرغا ينهض على أساس اختبار الطاقات اللغوية، وتحري مقومات المظهر الكتابي؛ فاستحال الفكر بؤرة العطاء الأدبي من التأسيس إلى التجنيس.

تعد مقاربة المستويات الجمالية والفكرية، والكشف عن طبيعة الوعي المؤسس للمرجع الإيديولوجي في الكتابة الأدبية مطلبا بحثيا جادا، كما أننا إذا تقصينا مؤشرات الفكر بعزل عن الجمال لا شك في حدوث خلل في الملحق التأويلي.

تجاوز التجريب الأدبي من المنطلقين الإيديولوجي والجمالي حدود الاستهلاك في الممارسة والاشتغال، فلم يعد الأدب نصا ظرفيا ينسحب على راهنه فحسب، بل تجريبا نصيا مغايرا في كثافة المعنى، وتنوع الشكل.

وقد حصرنا ورقتنا البحثية ضمن هذه الجزئية المعرفية؛ نظرا لأهمية البعد الإيديولوجي وما يضطلع به من أدوار خاصة في ارتباطه بواقعنا وتاريخنا، وكذا قدرته على توجيه مسارات وعينا الثقافي؛ حيث أصبحت المدونة الأدبية بمعيته قادرة على محاورة مختلف تحولات الحياة، الأمر الذي مكّنها من الكتابة بروح العصر، فضلا عن ذلك التحول الفكري وجمالي على مستواها.

لقد استحالت الكتابة الأدبية بحكم خصوصيتها المعرفية تراكما مغريا من الامتيازات الفكرية والجمالية، مما يثير مساءلة تعنى أساسا بالتجريب، فكيف استثمرت الخطاب الإيديولوجي؟، وأي اشتغال أدبي في التخريج الجمالي لهذا الخطاب؟.

تحددت قصدية هذه الدراسة بداية في الإجابة عن إشكالاتها المطروحة تطلعا معرفيا لتشكيل تصور عن التجريب الأدبي في أبعاده الإيديولوجية والجمالية، أما عن توثيقها بسند منهجي، والإفادة من أدواته الإجرائية؛ فقد توخينا في مقاربتنا للإيديولوجي والجمالي في الكتابة الأدبية التحليل والاستقراء، في بناء خطاب قراءة القراءة.

المقاربة المعرفية: يعد الإيديولوجي والجمالي في تجليهما عبر الممارسة النصية الأدبية من أبرز الوقائع الكتابية المطروحة للنقاش في المقاربات النقدية الحداثية على اختلاف توجهاتها؛ مما يقتضي طرح تصور تأصيلي؛ من

شأنه ضبط نسقيهما المفاهيمي، والمعرفي في مقابل مقترحات اصطلاحية، ومفاهيمية متعددة؛ فما المقصود بالجمالي، والإيديولوجي في الكتابة الأدبية تحديدا؟

1. الإيديولوجي:

- الطرح اللغوي:

ارتبط مصطلح الإيديولوجيا في ترجمته بمقابلات مصطلحية عدة؛ من قبيل: (منظومة فكرية، وفكر، وذهنية، وغيرها)[1]، إلا أنه فرض تداوله في صيغته المعربة (إيديولوجيا)، وقد ظهر أول أمره في الاستعمال الإنجليزي (Ideology) سنة (1796م)؛ كترجمة للمصطلح الفرنسي (Idéologie)[2]؛ المركب من كلمتين؛ تفيدان معنى علم التصور؛ أي حصول صورة الشيء، وكيفية تحققها في الذهن[3].

والإيديولوجيا في المقاربة المعجمية؛ تركيبة من الأفكار، والمعتقدات المتعلقة بحقبة زمنية محددة، وبجماعة، أو بمجتمع ما[4]؛ كما أنها «نظام يمتلك منطقه، وصرامته الخاصة، في التمثيلية على مستوى (الصورة/الميت/الأفكار/المفاهيم) بحسب حالات ... وجودها، ودورها التاريخي في ظل مجتمع ما، وتخص تمثيلية الإيديولوجيا جماعة اجتماعية، لا استمرارية نسبية، ونظام قيمي، يرتبط بطبقات اجتماعية، منتجة عبر هيمنتها الاجتماعية، ولا تمثل الإيديولوجيا نظام العلاقات الواقعية، التي تحكم الوجود الفردي، بل تحكم العلاقات الخيالية لأفرادها، بالعلاقات الواقعية التي يعيش هؤلاء في ظلها»[5].

فالإيديولوجي منظومة فكرية، ذات تصورات منهجية خاصة تتحكم في توجيهها، وتمكنها من أداء دورها التاريخي، في حدود المرجع الاجتماعي؛ حيث تتجلى عبر مختلف الممارسات، الفاعلة من منظور الواقع، وتشتغل في مستوى العلاقات الافتراضية التي تربط الأفراد بواقعهم، لا في مستوى العلاقات الواقعية عموما.

- الطرح الاصطلاحي:

تعد الإيديولوجيا (Ideologic/Ideology) من المصطلحات المستعصية على التحديد الدلالي؛ وإن شاعت في التداول المفاهيمي على أنها علم الأفكار، ثم الأفكار في صلاتها بالواقع الذي تعبر عنه، وتدّعي معرفته[6]، ويعود توظيف هذا المصطلح لـ"**ديستوت دي تراسي**"[7]؛ في كتابه "تخطيط العناصر الإيديولوجية" الصادر سنة (1801م)؛ سعيا منه إلى تأسيس علم للأفكار؛ يتجاوز كل معرفة قائمة على الاعتقاد، وأن أي قصور معرفي يردّ إلى قصور في منهج التفكير، لا إلى قصور فطري في العقل البشري؛ فالتفكير الصحيح ينتج معرفة صحيحة، بعيدا عن الأوهام، وبما أن علم الأفكار؛ يتحكم أصلا في توجيه العلوم على اختلافها، كانت الإيديولوجيا نظرية النظريات[8]؛ وبوصفها علما؛ نلفيها تدرس الأفكار؛ من حيث أصلها، وقوانينها، متخذة صيغة نقاشات، وتحليلات لأفكار فلسفية مهمة[9].

وقد تصور "**دستوت دي تراسي**" مجال البحث في علم الإيديولوجيا؛ على أنه دراسة الأفكار، والمعاني المجردة؛ من حيث الخصائص، والقوانين، والأصول المتحكمة في توجيهها، وكذا العلاقات التي تربطها

بمختلف الأفضية التي تعبر عنها[10]، وتعدّ الإيديولوجيا من أهم المفاهيم التي تناولها الطرح المعرفي الماركسي؛ على أساس أن «ما نطلق عليه الإيديولوجيا، ليس سوى مختلف أشكال الانعكاس، في نفوس أناس يعيشون تاريخا واحدا، لا يقبل التجزئة»[11]، وفي ضوء الإحالة الإيديولوجية يدرك الأفراد طبيعة علاقاتهم بالآخرين، وبالوسط الذي يحتضنهم، كما تمكنهم من الاندماج في مجتمعهم، دون سند معرفي دقيق؛ فهي منظومة تنتجها تصوراتهم بشأن ذلك[12].

أما الإيديولوجي (Idéologique/Ideological) في تصور "**كارل ماركس**"؛ فيشمل جملة من الآراء، والتصورات، والاعتقادات المتداولة في الأوساط الاجتماعية[13]، كما أطلق مصطلح الفكري (Idéologique) في مقابل الوقائع الاقتصادية؛ للدلالة على مختلف التصورات، والتمثلات، في تشكيلها أنساقا فلسفية، أو دينية معينة[14].

فالإيديولوجيا ليست مجرد تركيبة من الأفكار الزائفة، التي تفتقر لرؤية تنظيرية واضحة في المفهوم، والممارسة؛ ذلك أن «الأشكال الإيديولوجية هي تعبير عن (تغيرات) في ظروف الإنتاج الاقتصادية، لكن ينظر إليها هنا كأشكال يصبح فيها الناس على (وعي) بالنزاع الناشئ من ظروف، وتغييرات في تلك الظروف المتعلقة بالإنتاج الاقتصادي»[15].

من هذا المدخل تقترح الإيديولوجيا تفسيرا كليا للوقائع الاجتماعية؛ باعتبارها حقائق خاصة، في مقابل مصالح الطبقة التي يمكن أن نطلق عليها توصيف الحقائق العامة؛ غير القابلة للنقد، والمراجعة، وتتمكن الإيديولوجيات من بلوغ تأويلها الجامع؛ مستثمرة المتاح من المتطلبات؛ كاللغة، والأسطورة، والدين، والأخلاق، والفلسفة؛ سعيا منها لإخفاء أي تعارض ظاهر، ومحتمل بين المصالح[16]، وفي ضوء ذلك تتحدد إيديولوجيا الطبقات الاجتماعية؛ بوصفها نسقا فكريا يعكس المنافع المادية لأفرادها، مما يطرح إشكالية تعارض المصالح الفردية، والجماعية، وما ينتج عنه من صراع يخل بتوازن المنظومة الاجتماعية.

2. الجمالي:

- **الطرح اللغوي:**

أتى القرآن الكريم على ذكر مصطلح "جَمَال" مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[17]؛ دلالة على الحسن، والبهاء[18]، وجاء في تفسير هذه الآية الكريمة أن «الجمال ما يتجمل به، ويتزين، والجمال الحسن، وقد جُمل الرجل (بالضم) جمالا؛ فهو جميل، والمرأة جميلة، وجملاء أيضا... يريد الزم تجمّلك، وحياءك، ولا تجزع جزعا قبيحا»[19].

والجمال مراتب في منظور أهل العلم؛ متمثلة في الخَلق، والخُلق، والفِعل؛ «أما جمال الخِلقة فهو أمر يدركه البصر، ويلقيه إلى القلب متلائمًا، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك، ولا نسبته لأحد من البشر، وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم، والحكمة، والعدل، والعِفة، وكظم

الغيظ، وإرادة الخير لكل أحد، وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق، وقاضية لجلب المنافع فيهم، وصرف الشر عنهم، وجمال الأنعام، والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر»[20]؛ فجمال الخلقة مدرك بالحواس، تستحسنه؛ لتلاؤمه، واتساقه، وانتظامه، وجمال الخلق، والأفعال خاضع لمبدأ الخير.

كما نستشف الجمال في كلام المولى عزّ وجل؛ «من خلال الموضوعات القرآنية المتعددة، والتي تشمل المفردة المنتقاة الصافية، والتركيب الجزل، والصورة البارعة، والحكمة البليغة، والمثل السائر، والقصة الواعظة، والحوار الفني، والتشريع السامي، والتصوير الكامل، والتهذيب المربى، وأبرز ما يميز الجمالية في القرآن عناصر الأداء التعبيري المناسب، والذي يشمل التعبير الفني بألوانه، وأنواعه، وفق الدواعي النفسية، والاجتماعية، والإعجازية، وما يحويه من إيجاز، وتصوير بالكلمة المعبرة، والتركيب الموحي، والآية أو الآيات المصورة في مشاهد حية، ولوحات شاخصة، وأحوال نفسية، وذهنية عامة»[21].

يتدخل كل من اللفظ والمعنى في صياغة الجمالية القرآنية، فكلام الله معجز في نظمه، وبليغ في طرحه؛ بما يتضمنه من ألوان تعبيرية، وأشكال تصويرية، غاية في الثراء الدلالي، المكتنز بالمحمولات الفكرية، المتصلة بالطبائع النفسية، والاجتماعية للناس.

وجاء في السنة النبوية الشريفة أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسنا، ونعلي حسنا، قال: "إِنَّ الله يُحِبُّ الجَمالَ"»[22]، فهو جميل؛ محب للجمال؛ حيث نستشفه في خَلقه، وأكثر ما يحب الخالق أن يكون العبد حسن الخُلق، يلتزم الجمال في الفعل، والقول.

ويتخذ الجمال في المقاربة المعجمية العربية صيغا لغوية عدة؛ منها «الجميل: ضدّ القبيح، والجَمال: ضدّ القبح، ورجل حُسّان جُمّال، وامرأة حُسّانة جُمّالة ... ويقال: جَمالَك أن تفعل كذا، وكذا؛ أي لا تفعله، وألزم الأمر الجميل»[23]،ويقال: «اتَّبِعْ ما هو أجمل، واسترِح»[24]، ويقال أيضا: «جَمَّل الله عليك تجميلا؛ أي جَمَّل الله أمرَك»[25]، والله عز وجل مصدر الجمال كله؛ وهو الحسن في الرجل والمرأة، والأفعال، والصور، والأحوال، والجميل يعارض القبيح، ويخالفه في الطبيعة، والقصد، وكلاهما يستمد دلالته، وخصوصيته في سياق هذه المعارضة.

وجاء في حديث الإسراء: «ثم عَرَضَتْ له امرأة حَسْناء جَمْلاء؛ أَي جَمِيلة مليحة ... وقال ابن الأثير: والجَمَال يقع على الصُوَر والمعاني، ومنه الحديث: "إن الله جَميل يحب الجَمال"؛ أَي حَسَن الأفعال، كامل الأَوصاف»[26]؛ فالجمال يتخذ مظاهر عدة، يتقدمها جمال الخُلق، إضافة إلى الجمال في الوصف، وهو قرين الحسن، والملاحة، يتحقق في الصور، والمعاني، وأن الجمال الإلهي المصدر المطلق للظاهرة للجمالية.

أما في المعاجم الحديثة؛ فالجمال من «تجمَّل الرجل تكلَّف الجميل، وتحسَّن، وتزيَّن، وتلطَّف في الكلام ... الجَمَال الحسن في الخَلق، والخُلُق، وفرّق بعضهم بين الحسن، والجمال بأن الحسن يلاحظ لون الوجه، والجمال يلاحظ صورة أعضائِه، والملاحة تعمُّهما جميعًا؛ فكل مليح حسنٌ، وجميلٌ معًا، وليس كل حَسَنٍ جميلًا، ولا كل جميلٍ حَسَنًا ... قيل (جمل) هو مأْخوذٌ من الجِمَال؛ لأن العرب يحسبون الجِمال جَمالًا، وزينةً ... والجُمَّال الجميل، أو أجمل من الجميل ... ورُبَّما استعمل الجميل استعمال الأسماء الموصوفة، فأُريد بِه الإحسان، والمعروف»[27].

فمن تجليات الجمالية؛ التلطف في القول، والجمال يكون في العناصر، والأجزاء، والحسن في اكتمال المشهد، وانتظام الكل، والملاحة أعم في اشتمالها على ذلك كله، فالمليح الجميل، والحسن، ولا ليس كل جميل، وحسن بمليح، بما يقتضيه منطق صلة الجزء بالكل، كما يراد بالجميل الإحسان، والمعروف في المعاملة.

من الواضح تعدد الصيغ اللغوية لمصطلح الجمال، وكذا اتساع حقله الدلالي؛ إذ يفيد معاني الحسن، والبهاء، والزينة؛ الحاضرة في مستوى نظم الألفاظ، واقتراح المضامين، في سياق ما يسمى بـ "بلاغة الكلام"، إضافة إلى الجمال في المواقف، والتصورات، مما يثبت تصنيفية الظاهرة الجمالية، ويمنح الحكم الجمالي شرعية التوظيف، والاشتغال.

- الجمالية في الاصطلاح:

تمثل الجمالية أهم مطالب التخريجات النصية، على اختلاف، وتعدد طبائعها الأجناسية، وما تنطوي عليه من محمولات إيديولوجية، إلا أن الجمال أصلا يطرح في مفهومه المعرفي إشكالية أعقد مقارنة بإشكالية العلاقات التي تربطه بمستويات إدراكه؛ فكيف يتدخل التفكير في بناء التجربة الجمالية؟.

قدِّر لمصطلح (Aesthetics) التداول مع التباس في دلالته الخاصة على الفن، والعامة على الأشياء الجميلة، ثم شاع استعمال مصطلح "محب الجمال" (Aesthete) في سنة (1880م)؛ للدلالة على استحسان المظهر الخارجي، وذلك على سبيل السخرية، وانتهى الأمر إلى إطلاق المصطلح الواصف (Aesthetic)؛ المتعلق بمسائل المظهر الفني، وقيمه الجمالية[28]، وتُعنى فلسفة الجمال[29] بمحاولة تفسير التذوق باعتباره مضمون أي حكم جمالي[30].

والجمالي (Esthétique) نسبة إلى الجمال، قائم على طلبه لذاته، دون منفعة[31]؛ فالاعتبارات الجمالية تتقدم الاعتبارات النفعية؛ أي الجمال لذاته، عبر صوره المتعددة؛ والماثلة في التصور الاجتماعي؛ ذلك أن القصدية النفعية تلحق المعطى الجمالي، ولا دخل لها في جوهره.

وقد ظهر مصطلح (Aesthetic) بهذا المعنى بداية في اللغة الإنجليزية مع مطلع القرن التاسع عشر (19م)، وتحقق له الشيوع منذ منتصفه، وهو مستعار من اللغة الألمانية، والأصل اللاتيني الذي أطلق أول أمره عنوانا لكتاب: الجماليات (Aesthetica)؛ (1750-1758م)[32]، لـ "ألكسندر باومجارتن" (Alexander Baumgarten)[33]؛ الذي عمد إلى محاولة وضع الجمال (Beauty) في سياقه التعريفي؛ على أنه يحمل دلالة الكمال الذي ندركه بواسطة الحواس[34].

يفيد الجمال في الاصطلاح؛ المستحسن من الظواهر، في خضوعها للتذوق، الذي يخضع بدوره لأحكام القيمة، كما أن هذا التذوق في مرجعه الإدراكي يعتمد على الحواس، فلا ندرك الجميل إلا بواسطتها، إلا أن هناك وقائع جمالية يتطلب إدراكها اشتغالا فكريا، يستحضر وقائع سبق إدراكها على سبيل المقارنة؛ فبأضدادها تدرك الوقائع في منظور التصور الجمالي.

3. الإيديولوجي والجمالي في كتابة النص الأدبي:

تمارس الإيديولوجيا فاعليتها على مستوى الممارسة النصية، مما يفرض طرح تساؤل وجيه فيما يتعلق بتخريج العمل الأدبي تخريجا إيديولوجيا لا يلغي اشتغال الجمال في التأثيث والبناء؛ وذلك «عبر ماديات لغوية بأشكال مختلفة، وصور متعددة، ويستدعي البحث في تحييناتها تحديد مجالات النوع المعرفي، والشكل، وبالتالي التفريق بين تمثيلها في الوسائل الاتصالية –كتجسيدات نصية، أو خطابات – وبين حدود النوع المحتوي لها أو النصوص؛ وذلك على اعتبار أن الشكل اللغوي لا يمتلك دلالة بمعزل عن غيره، وبالتالي لا يمتلك أي وظيفة إيديولوجية»[35].

ويلامس الإيديولوجي الأدبي من مدخل اعتبار النص وحدة إيديولوجية[36]؛ تتجلى في ضوء المحمولات السوسيو ثقافية في حدود تلقائية الذات الكاتبة في محاورة التيمة النصية؛ حيث تضفي عليها قدرا من قناعاتها، وتصوراتها.

ولابد من الإشارة إلى أن المرجع الإيديولوجي لا يقف من الخاصية الجمالية في كتابة النص موقف المعارضة، «وإنما يتصل الأمر بوعي المبدع؛ المرتبط بمناخ اجتماعي، يمتلك القدرة على محاورته عن طريق الأخذ والرد. إن عملية اختيار الكاتب لشكله الفني تمثل في جانب منها اختياراً واعياً، لكنها من جانب آخر، تتحدد على أساس إيديولوجي، أما عمليات التغيير التي يبديها على الأشكال المعروفة، والموروثة، فإنها تنطوي على دلالة أيديولوجية»[37].

إن النص الأدبي تحكمه جملة من المحددات الفكرية والجمالية؛ ذلك أن «إيديولوجية الكاتب الحقيقية؛ هي رؤيته للعالم»[38]، وتصوره بشأنه، وفي سياق التحديد الجمالي «يجب على الأدب دائماً أن يكون ممتعاً؛ يجب عليه دائماً أن يمتلك بنية، وهدفاً جمالياً، وتلاحماً، ومفعولاً، يتوجب على الأدب طبعاً أن يكون على صلة معترف بها مع الحياة، وإن كانت الصلات شديدة التنوع يمكن السمو بالحياة، أو الاستهزاء

بها، أو مناقضتها؛ فالأدب في كل الحالات انتقاء من الحياة؛ ذو طبيعة نوعية هادفة، وعلينا أن نحوز معرفة مستقلة عن الأدب؛ لكي نعرف ما يمكن أن تكون عليه صلة عمل معين بالحياة»[39].

إن الممارسة النصية الأدبية تحمل في ذاتها توصيفا مزدوجا، يجمع بين الفكر والجمال، وإن كانت لا تتأتى من هذا التوصيف قصدا، بل عفوا؛ كون النص ليس فعلا دعائيا لتوجه إيديولوجي بعينه، ولا يفترض به ذلك، ولا تجريبا جماليا صارخا يعتم المقاصد ويغيبها، بل«إن فهم الخبرة الجمالية؛ يقتضي أولاً فهم بنية العمل الفني؛ موضوع هذه الخبرة»[40]؛ وفي سياق هذا الفهم يأخذ النص الأدبي موقعه الجمالي في تقديم محموله الفكري.

يستثمر النص الأدبي خيارات جمالية عدة في مناقشة الوقائع الفكرية، وذلك وفق معطيات متغيرة شكلا، ومضمونا، تعمل على تحقيق إنتاجيته الدالة، فهل يكون أفضل في تأثيثه الإيديولوجي، أم الجمالي؟.

يمكن ردّ هذه التعددية في الخيار لطبيعة النسق الأدبي؛ ذلك أن «للأنساق الأدبية، على اختلاف أنواعها في النص الروائي، أهمية بالغة في إنتاج الدلالة؛ باعتبار أن هذه الأخيرة تعبر عن مضمون إيديولوجي، والذي هو نسق دلالي إعلامي حامل لأشكال متعددة من الوعي؛ فحضور الإيديولوجيا في العمل الأدبي، يكون على شكل شفرات (codes) منظمة، ومقصودة يوجهها الكاتب، وعلى القارئ تحليل هذه الشفرات، وربطها ببعضها البعض، للوصول إلى المعنى الإجمالي الذي يحمله النص»[41].

وعرض المعنى الاجتماعي مثلا، في قالب أدبي ذي خصوصية جمالية، يعدّ ضربا من التوثيق الفني؛ «فالحضور المجتمعي في الكتابات الروائية له دور في إنتاج أشكال متعددة من الوعي، كما أنه مقترن أساساً بطبيعة وجود الأفراد بأنظمتهم الاقتصادية، والاجتماعية، وتعبيراً عن قناعاتهم الفكرية»[42].

تحمل الكتابات الروائية في ضوء هذا التوصيف القدرة على التحكم في توجيه مختلف مظاهر الوعي الاجتماعي، بما تحمله من مكنون إيديولوجي؛ حيث تظهر طرحا كتابيا ينزاح عن تقاليد الخطابية المباشرة إلى تشكيلات جمالية تعمّق السند الفكري في مصاحبتها مختلف الوقائع المسرودة.

خاتمة:

انطلاقا من القضايا التي سبق وتطرقنا إليها تتكشف لنا جملة من النتائج التي نأتي على ذكرها في ختام هذه الورقة البحثية:

- الإيديولوجي مصطلح يفتقر إلى الاستقرار المفاهيمي؛ بحكم تعدد مجالات استعماله، مما أوقعه في حرج معرفي كبير جراء غموضه وزئبقيته، وإن كان قد فرض حضوره بقوة عبر مختلف الممارسات الكتابية.

- شهدت الواقعة الجمالية تحولا كبيرا في ضوء العديد من التيارات الفنية والإبداعية، واكتملت مرتكزات هذا التحول في الممارسات الإدراكية ذات الامتدادين الروحي والوجودي في سياق تراكم النتاجات، وتعدد المقاصد.

- شكلت الإيديولوجيا هاجسا كتابيا راح يتحكم في توجيه مسارات المعنى التي تتدخل في صياغة النتاج الأدبي عبر استدعاء أشكال تعبيرية عدة، وهذا ما ساهم في انفتاح مدوناته على آفاق قرائية وتأويلية لا تقل تعددا وانفتاحا.

- الكتابة الأدبية ظاهرة فنية في طور التخريج المستمر الذي يصوغه المقترح الفكري؛ فيظهر وعيا معرفيا ما بالواقع الاجتماعي الذي نعيش؛ عبر تفاعلية نصية إيديولوجية دالة، تتحكم في توجيه مختلف الخيارات الجمالية في كتابة الواقع، التي تطمح لمساءلة أسباب تراجعنا، وغير ذلك من مؤشرات الأرق الثقافي الذي يحاصرنا.

هوامش البحث:

[1]- ينظر: عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، لبنان/المغرب، ط5، 1993م، ص12/09.

[2]- ينظر: وليمز ريموند، الكلمات المفاتيح معجم ثقافي ومجتمعي، تر. نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، المغرب/لبنان، ط1، 2007م، ص 157.

[3]- ينظر: الشيخ رشيد عطية، معجم عطية في العامي والدخيل، ضبطه وصححه خالد عبد الله الكرمي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1956م، ص 343-344.

[4]- ينظر:

Dictionnaire Du Français, Dictionnaires Robert et CLE International, Paris, 1999, p. 510.

[5]- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، بيروت/الدار البيضاء، لبنان/المغرب، ط1، 1985م، ص 41.

[6]- ينظر: هادي شعلان البطحاوي، مرجعيات الفكر السردي الحديث، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016م، ص 75-76.

[7]- دستوت دي تراسي أنطوان لوي كلود (Destutt De Tracy, Antoine Louis Claude) (20 تموز 9/1754 آذار 1836م): فيلسوف فرنسي، ولد في باراي-لو-فريزيل، وتوفي في باريس، من آثاره: "ملاحظات حول نظام التعليم العام الراهن" 1809، و"عناصر الإيديولوجيا" 1803، "رسالة في الإرادة" الجزء الرابع من "مبادئ الإيديولوجيا" 1815، وغيرها. ينظر: منير البعلبكي، معجم أعلام المورد موسوعة تراجم لشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين مستقاة من موسوعة المورد، إعداد رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص 284.

[8]- ينظر:

Patrick Quantin, Les Origines de l'Idéologie, Economica, Paris, 1987, p. 99.

[9]- ينظر:

Le Petit Robert, Dictionnaires Le Robert, Paris, 1990, p. 957.

[10]- اقترح "دستوتدوتراسي" مصطلح إيديولوجيا، ومجال البحث فيها بوصفها علما؛ في كتابه: "مذكرة حول ملكة التفكير": مذكرة الصف الثاني في المعهد، في جزئها الأول، في الفترة ما بين (1796 – 1798). ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر. خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه حصرا أحمد عويدات، المجلد2 (H-Q)، منشورات عويدات، بيروت/باريس، لبنان/فرنسا، ط2، 2001م، ص 611.

[11]- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، مرجع سابق، ص 42.

[12]- ينظر:

Encyclopédie Alphabétique Larousse, Librairie, France, 1977, p. 932.

[13]- ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، 1983م، ص 29.

[14]- ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد2 (H-Q)، مرجع سابق، ص 612.

[15]- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد1 (A-G)، مرجع سابق، ص 159.

[16]- ينظر:

François Bourricaud, Le Bricolage idéologique (Essai Sur Les Intellectuels Et les Passions Démocratiques), Presses Universitaires De France, 1ère édition, 1980, p.10.

[17]- سورة النحل، الآية: 06.

[18]- ينظر: أحمد مختار عمر وآخرون، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، مؤسسة سطور المعرفة/مؤسسة التراث، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ - 2002م، ص 128.

[19]- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمُبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي وخالد العوّاد ومحمد معتز كريم الدّين، ج 12، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ - 2006م، ص 273-274.

[20]- المرجع نفسه، ص 273-274.

[21]- بلحيارة خضرة، الجمال في القرآن الكريم، مجلة الأثر، جامعة ورقلة، ع 22، جوان 2015، ص 204.

[22]- الحافظ محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ الترمذي، سنن الترمذي – الجامع المختصر من السنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل المعروف بجامع الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلّق عليه العلامة المحدّث محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، (د.ت.ط)، (رقم الحديث: 1999)، ص 453.

[23]- أبو بكر محمَّد بن الحسن بن دُرَيْد، كتاب جمهرة اللغة، حققه وقدّم له رَمزي مُنير بَعلبَكي، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، تشرين الثاني (نوفمبر) 1987، باب الجيم واللام مع باقي الحروف، مادة (ج ل م)، ص 491.

[24]- المرجعنفسه، ص 491.

[25]- المرجع نفسه، ص 1317.

[26]- ابن منظور (الأفريقي المصري أبو الفضل جمال الدّين محمَّد بن مكرم)، لسان العرب، المجلد 11، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت.ط)، ص126.

[27]- المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987، باب الجيم، مادة (جمل)، ص 125-126.

[28]- ينظر: وليمز ريموند، الكلمات المفاتيح معجم ثقافي ومجتمعي، مرجع سابق، ص 41-42.

[29]- الجمال في اللغة الفرنسية Beauté وفي اللغة الإنجليزية Beautyوفي الأصل اللاتيني Bellus.

[30]- ينظر: محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط8، (د.ت.ط)، ص 04.

[31]- ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج1، دار الكتاب اللبناني/مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، 1982م،ص 409.

[32]- هذا الكتاب مكون من جزأين، وشهد توزيعا محدودا ولم يترجم.

[33]- ألكسندر باومجارتن (Alexander Gottlieb Baumgarten) (17 يوليو 26/1714 مايو 1762): فيلسوف ألماني، ولد في برلين، شغل منصب أستاذية الفلسفة بجامعتي فرانكفورت وهال؛التي تلقى تعليمه بها، ومن آثاره: "الميتافيزيقا" (Metaphysica)، و"الاستطيقا" (Aesthetica) في مجلدين. ينظر: محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، مرجع سابق، ص 29-30/ (الهامش).

[34]- ينظر: وليمز ريموند، الكلمات المفاتيح معجم ثقافي ومجتمعي، مرجع سابق، ص 41.

[35]- عموري السعيد، إيديولوجيا/الخطاب/النص نحو مقاربة مفاهيمية، مرجع سابق، ص 148.

[36]- ينظر:

J. Kristeva, Recherche pour une sémanalyse, Editions Du Seuil, Paris, 1969, p. 52/81.

[37]- المرجع نفسه، ص 84-85.

[38]- سليم بركان، النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد للروائية أحلام مستغانمي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، تخصص: تحليل الخطاب، إشراف الدكتور عبد الحميد بورايو، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2003-2004م، ص 18.

[39]- المرجع نفسه، ص 221-222.

[40]- سعيد توفيق، الخبرة الجمالية - دراسة فلسفة الجمال الظاهراتية (هيجر، سارتر، ميرلوبونتي دوفرين، إنجاردن)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص 216.

[41]- سليم بركان، النسق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد للروائية أحلام مستغانمي، مرجع سابق، ص 11- 12.

[42]- المرجع نفسه، ص 38.